فى ليلة الميلاد

للقصصى الفرنسى جى دى موپاسان

بقلم السيد محمد العزاوى

لقد كان أمس اليومَ الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر

وكنت على وشك أن أتغدى مع صديقى القديم « چورچ جاران » ، حينما أتى إليه مولاه خطاباً غطت غلافه الطوابع والأختام الأجنبية . فقال لى چورچ :

— أتسمح ؟

— من دون شك !

فطفق يقرأ ثمانى ورقاتٍ طوال ، خطت عليها يد انجليزية أسطراً فى كل اتجاه .. فهى تستقيم فى اتجاه واحد حيناً ، وتتقاطع فى اتجاهاتها أحياناً . وكان يقرؤها بصوت بطئ خفيض ، منتبهاً لما يتلو أعظم انتباه ... فى تلك اللذة التى يحسها عادة من شيئاً يمس قلبه الرقيق

وبعد أن فرغ من تلاوته وضمه على رف المصطلى ثم قال :

« هيه ! هذا من أذيال تاريخ قديم ، مافضضت غلافه لأحد من قبل ... تاريخ عاطفي أسدل عليه الزمن سجفه وحجبه . لا يذكرنى به إلا بعض الدسائم تهب علىّ من هذا الكتاب وأمثاله ... آه !

لقد كان يوماً فريداً كل عام . وبخاصة فى ذلك العام الذى مضى عليه عشرون من إخوته ... حينما كنت فى الثلاثين .. فأنا الآن فى الخمسين !

« كنت حينذاك مفتشاً بهذه الشركة التى أديرها الآن ، « شركة ماريتيم للتأمينات » . ولما أزمع العام الرحيل عقدت العزم أن أمضى عيد رأس السنة الجديدة فى باريس اللاهية . ولم يخالجنى شك فى أنى سوف أقضى فى باريس يوماً سعيداً حافلاً ، وليلة مرحة لاهية ... ولكنى تلقيت من من مدير الشركة خطاباً يأمرنى فيه أن أبحر — توآ — إلى جزيرة رى « Ré » إذ اندفع فلك شراعى ذو ثلاث سوارٍ إلى الشاطئ فاحترث الرمل وعجز عن الخروج . وكان الفلك تابعاً لشركة « سنت نازير البحرية » إحدى عميلاتنا القديمات

« إذن ضاع الأمل فى ذلك اليوم السعيد الحافل ، وفى تلك الليلة المرحة الطروب ... وكانت الساعة الثامنة حين تسلمت الخطاب . فوصلت فى العاشرة بناء الشركة لأتلقى التعليمات اللازمة . وفى نفس المساء حملنى القطار السريع ، فوصلت « لاروشل » فى صبيحة الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر

«وكان لدى ساعتان من الزمن أقضيهما قبل أن أركب فلك « ري » السفين « جان — جيتون » فطفقت أطوّف بالدينة . وقد عجبت من أمرها إذ لم

أو مدينة أعجب من « لاروشل » . فهى واسعة الشوارع ملتوية المسالك كأنها التيه « اللابرنت »

« وبعد أن طوّفت ما طوّفت فى شوارعها الفريدة حلنى زورق بخارى أسحم إلى جزيرة «رى» يتحرك وهو يصفر صفيراً مدوياً يبدو عليه الغضب والاحتدام . ومرق من بين المنارتين اللتين تحرسان الثغر ، ثم عبر الجون الهادىء نخرج من ذلك السد الذى ابتناه « ريشيليو » حفظاً للميناء وأمناً للسفن . حينئذ رأيت الماء كيف يتكسر على صخوره ، وشاهدت الصخور فى البحر تطوق المدينة البارزة فى اليم فكأنها عقد درى زان نحرها الجيل ... ومن ثم اتخذ الزورق طريقه فى اليم إلى اليمين .

« لقد كان يوماً ذا برد وزمهرير ، فسماؤه ملبدة بضباب كثيف وسحبه ثقال ؛ وكان البحر هادئاً تحت ذلك السقف الواطىء المنحوس ، فكان الزورق يمخرُ فى أديم أزرق صاف ... فى مياه هادئة لا تحركها هبة نسيم ، فكأنها متعبة منهوكة من كثرة ما لاقت من الأين والعنت ، بل كأنها ميتة لا حياة فيها : أماتها البرد القارس ، وجثم على صدرها ذاك الضباب الكثيف ، وانزلق « جين — جيتون » على صدرها الصقيل بأمن ودعة . واستطاع أن يسرى فى تلك اللجة السدفاء الهامدة ، تاركاً وراءه أمواجاً صغيرة لا تلبث أن تهى فتموت .

« وطفقت أتحدث مع القائد مدة ... كان هذا القائد مندمجاً فلا تدرى فى أى موضع ركبت أطرافه منطوياً على نفسه فهو مستدير — إجمالا — كهيئة زورقه البخارى . وكنت أريد أن أعرف بعض خفايا الكارثة التى سوف أقررها : وهى أن « مارى — يوسف » — فلكا كبيراً ذا ثلاث سوار من سفن « سنت نازير البحرية » — قد اضطرته ليلة عاصفة أن يحترث الرمل من جزيرة « رى » ...

« وقد كتب مدير الشركة : لقد قذفت العاصفة « مارى — يوسف » فى ليلة هوجاء ، فنشب فى رمل الشاطىء حتى بات من العسير تسييره من جديد . ولم يكن هناك من الوقت ما يكفى لأن نحمل ما كان على ظهره ، إذن فيجب عليكم تقدير حال السفين المنكوب ، وتقدير ما كانت عليه حاله قبل الكارثة ، ثم الحكم بعد ذلك بأن كل ما بذلناه من جهود كاف لأن يعيده سيرته الأولى . وقد ذهبت وكيلاً من شركتنا كى أقدر حال السفين ، فربما حكمت لهم ، وربما شهدت عليهم أمام القضاء إذا دعت الحال

« وبعد أن يتسلم المدير تقريرى يجب عليه أن يعد عدته للدفاع .

« وكان قائد الزورق « جان — جيتون » يعرف كل شىء عن الكارثة إذ دعى وسفينه وألقيت على عاتقه عملية الانقاذ . وقد قص على القصة فى بساطة وسهولة قال : إن « مارى — يوسف » قد قذفته هبة من ريح صرصر عاتية فى ليلة مدلهمة فتحول عن طريقه فضل سواء السبيل ، واتخذ سبيله في اليم سربا ، وبات لا يدرى ربانه فى أى شقة من اليم هو ، ولا فى أى وقت من الليل الطويل ؛ وظل يخبط فى بحر من الزبد الغاضب والموج المتدافع والريح العاتية .. موجة تبلعه وأخرى تلفظه ، وريح تسفمه وأخرى تدفعه ، حتى ارتطم بذلك الساحل الهولة . وأنت تعلم أنه كثير الرمل لأن اليم يأتيه برمل « الصحارى » أثناء المد .

وبينا أنا أتحدث كنت أتلفت حولى ، وأدير البصر

فى كل مكان : فقد كان هناك بين أديم المحيط وسطح الضباب مجال تجول العين فيه وتبصر . وأخيراً شارفنا أرضاً فقلت :

— أهذه جزيرة رى ؟

— أجل يا سيدى !

وأشار القائد بيده — فجأة — إلى شىء غير واضح يقوم بقاموس المحيط — تقتحمه العين ولا تكاد تدركه — وقال :

— هيه ! هذا سفينك

— مارى — يوسف ؟

— نعم بالطبع !

ولكنى ذهلت ... ! هذه النقطة السوداء « مارى — يوسف ؟ » تلك التى لا تكاد تبصرها العين حين بصرت بها حسبتها قمة صفوان غارق فى اليم ! وبدت لى النقطة تبعد عن الشاطئ ثلاثة كيلو مترات سوياً ، فقلت :

— ولكن أيها القائد ! لابد ألا يقل غور الماء عن مائة وخمسين متراً فى تلك النقطة التى أشرت لى عليها

فطفق يضحك ، ثم قال :

— مائة وخمسون مترا ياصاحبى ! إنى أقسم أن ليس هناك مترات : فكيف غورك الذى فرضت يا صديق ! ؟

— حقاً إنها مشكلة :

ولكنه استمر يقول :

— نحن الآن على المد ، فالساعة لما تبلغ التاسعة والدقيقة الأربعين ... لك أن تذهب أنى شئت ... فامش والشاطئ ضامًّا يديك إلى جيوبك ، واملأ بطنك الرقيق مما يقدم اليك « فندق ولى العهد » من آكال شهية وأشربات فاخرة ، ثم عد إلىّ بعد ذلك فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين أو فى الثالثة على الأكثر . وأنا أعدك أن لن تجد على « مارى — يوسفك » هذا قطرة من ماء أو أثراً لوحل ... وسوف تسر وتدهش إذ تعلم أن تلك العملية لن تستهلك من الزمن إلا ساعة وخمساً وأربعين دقيقة أو ساعتين على الأكثر . والواقع أنه لا يمكننا أن نقضى فى تلك العملية أكثر مما قلت ، لأنه سرعان ما يعقب الجزر مدا فى ذلك الشاطئ اللعين ... لك أن تبدأ عودتك إلينا فى تمام الرابعة والدقيقة الخمسين — أتدرك ما أقول؟ — وأن تركب « جان ـ جيتون » فى السابعة والنصف ، وأنا زعيم بأن أحملك فى نفس المساء إلى ميناء « لاروشل »

« فشكرت القائد ، ثم تخذت فى مقدمة الزورق مقعداً أرقب منه مدينة « سان مارتان » فقد كنا نعدو نحوها فى سرعة فائقة

وكانت « سان مارتان » ميناء تشبه جميع الموانى الصغيرة . إلا أنها تمتاز منهم بأنها حاضرة تلك الجزائر التى بعثرتها يد الطبيعة ـ حول القارة ـ فى قاموس المحيط . كانت قرية كبيرة من قرى الصيادين ، قدمها فى الشاطئ ، والقدم الأخرى فى وشل اليم العظيم ... تفتات الخضر والطيور ، والأصداف والسمك ، ومعظم العيش على هذا الأخير ، لأن الجزيرة خفيضة الأرض قليلة الزرع ، تبدو كأنها غير آهلة وإن كنت لم أطوف بها أو أوغل بداخلها

« وبعد أن اغتذيت عبرت رأساً ناتئاً مندفعاً فى صدر البحر ، وكان هذا ينعطف من ورائه فجأة . فكنت أصوب النظر — فوق الرمل — إلى مكان بعيد ، شديد البعد ... حيث تبدو نقطة سوداء بأقصى الأفق هناك بعيداً ... بعيداً ... وحثثت

الخطى فوق ذلك السهل الأصفر ، فكانت قدماى تغوصان فيه كما تغوص يد الجزار فى لحم عجل سمين! لقد كان البحر فى جزره بعيداً عن الشاطئ الطويل ؛ وكثيراً ما أنمت النظر كى أبصر ذلك الخط الذى يفصل الرمل عن المياه الصافية فلم أفلح إلا فى رؤية خط باهت مفرغ لا تفاصيل فيه ولا ملامح ... والآن ... ينبطح المحيط الأطلسى أمامى تماماً ... الشاطئ يحجزه ... فلست أدرى أهو يحتضنه محبة أم يتأهب لأن يصد غارته إذا ماعاد بعده الصاخب ... كنت أسير فى مفازة وحدى ، يلطمنى نسيم البحر فى هينة ودعابة ... ويلفنى الماء الأجاج برائحته الفظة المخمة ... ولكنى بين ذلك لا أعدم هبة من نسيم البر القوى ... من روائح العاقول وذلك النبات الذى ينمو على الشطئان ، ولا أعدم هبة من نسائم الموج الهادئ حين الجزر ...

« كنت أسير وحدى ، وكانت تشائينى أرواح أولئك الذين أماتهم البحر غيلة واقتساراً . نعم ! وكانت تحوم حولى ، وتحادثنى بأصواتها الخافتة ، يحملها النسيم على أجنحته الخفية .. ولكنى ما كنت أعى مما تقول شيئاً ، فقد كنت من آن لآخر أسرع الخطو وأوسع الخطى ... وأدفأنى المجهود إذ ذاد عنى رد الجو الشديد ، وبدأ الضال « مارى ـ يوسف » يتراءى لى بطلة غالها اليم ، ولفظها الموج على الشاطئ ؛ ولكنه كان يكبر كلما تقدمت رويداً ؛ حتى هالنى عظم حجمه ، واعتقدت بأنه حوت هائل قد أجهد صيادوه أنفسهم فى صيده وإخراجه من البحر ، ولكن جهودهم تكاد تذهب سدى ، فالحوت ينطرح على عطفه الأيسر ، ويوشك أن ينزلق إلى اليم مرة أخرى ...

« وبدا لى الحوت ، وقد تطرح على ذلك البساط الأصفر كبير الحجم عظيم النسب ، وقد ثقفته بعد ساعة من المشى السريع ...

« لقد استراح على أحد أعطافه مهدماً محطماً . يبدى للناظر عظامه المروقة وأضلاعه اليابسة . مثلما يفعل الحيوان العليل ... حقاً لقد كانت ألواحه سحماء من أثر القطران . ولكن من يتبادر إلى ذهنه أنها من أثر القطران ، وليست عظاماً نخرة فتتها السوس وسودها البلى ؟ إن المدقق يستطيع أن يميز هذا من ذاك . وما ذلك بفضل فراسة أو ذكاء ، بل بفضل دُسُرٍ حديدية ، ومسامير ناتئة فى الخشب : سوف يرى المدقق وغيره أن الرمل قد فرغ من غزوه من زمان بعيد . وأنه قد غزاه من كل ثلمة فتقها الحطم فيه . حقاً : لقد تغلغل الرمل فيه حتى بات من العسير أن ينظفه المرء أو يتثلل الفلك منه . بل لقد حسبت أنه نما فى الرمل كما ينمو الزرع فى الأرض ، فليس إلى اقتلاعه من سبيل . لقد غرسه الزارع من مقدمته فهى تبدو مدفونة فى ذلك الرمل الأصفر ، بينما ترتفع مؤخرته إلى السماء فارعةً ضارعة كأنها صيحة غوثٍ يائسة ! وكانت كلتان رجحهما اليأس وأضواهما الحزن ، تبدوان على عطفه الأعلى :

« مارى — يوسف »

علوت جثة الفلك من عطفه الذى استراح عليه ، وبعد حين كنت على سطحه الأعلى ، ثم دخلته لأطوف بحجراته وأبهائه ما سمح لىَ الرمل بذلك . وكان النور الشاحب يوصوص إلى من تلك المنافذ التى أنشأها فيه مبدع الفلك ، أو من تلك الفتوق التى أحدثها الصخر فيه . وكان

يلقى بأشعته الحزينة على تلك الحجرات والأبهاء التى صيرها الرمل كهوفاً وغيراناً ... لم يكن هناك شئ سوى الرمل ... والرمل فقط ...!

وبدأت أسطر على قرطاس ما أشاهد من حال هذا الضالّ المنكود . وكنت أبغى أن أفرغ من تقريرى ، ولكن جوف الفلك مظلم لايدخله النور إلا من كوة صغيرة تكفى لأن أبصر منها جل الشاطئ الأصفر ... كان حينذاك الوقت أصيلاً ، تداعب الشمس فيه بنورها الذهبى رمال الشاطئ الصفراء فتكسبه نوعاً من حياة وبهجة ، لاتلبث هذه أن تغيض وأن تنقبض هذه الأخرى . ذلك لأن الشاطئ كان وحيداً فلم يكن به أحد غيرى ... وغير ... « مارى — يوسف » ؛ وإنى لا أذكر أن منظراً من مناظر الغروب قد أثر فىّ مثلما أثر هذا ، فقد ملك ما ملك من زمام حسى وذهنى ، واستولى علىّ ما استولى حتى لم أعد أصطبر عنه برهة ريثما أخط بضع كلمات فى تقريرى الطويل . إن الطبيعة تتجلى فى الأماكن المنعزلة فتسحر وتأسر ... ولكنى تلهيت عنها فجلست على دن مقلوب مهشم . وأسرعت أخط ما يمن لى من الفكر كى أفرغ من تقريرى سريعاً . وبينا أكتب كنت أسمع همهمة جافة خافتة ... إنها هزيم الموج البعيد ... إنها عواء الريح العتيد ... إنها آهات الفلك الضارعة ... بل هي أنات الموجعة ... كلا ! إنها أصوات غامضة تحدثها مئات بل ألوف من حيوان اليم العظيم !

وسمعت بقربى أصواتاً آدمية فجأتنى فبهت وتحيرت فى أمرى ، فوثبت جزوعاً كأنما أنا أمام شيطان رجيم ! لقد حدست — فى برهة — أن غريقين سوف يقومان من قاع المركب ، يأتيان فيذكران كيف ماتا ، ثم يقصان علىّ من أنباء الفلك ما لم أحط به خُبراً . ولا أكتمك أنى ذعرت لتلك الفكرة ، فقفزت إلى سطح السفينة من إحدى الكوى . وهناك عند مقدمة الزورق شاهدت سيداً وقوراً ، قد حفت من حوله ثلاث فتيات حسان ... أو بالحرى سيداً انجليزياً تحف به فتياته الثلاث ، ولا يخالجنى ريب أنهم فزعوا جميعاً إذ يرونى بغتة أخرج إليهم هلعاً جزوعاً ، فقد كانوا يحسبون الفلك خالياً وحيداً ... وفرت صغرى البنات ، ولما ذهب عنها الروع عادت . أما الفتاتان الباقيتان فقد أمسكتا بأبيهما خشية أن يسقط على الأرض . أما هو فقد فغر فاه دهشةً وذعراً . وكان هذا كل ما أبداه من علائم الدهشة والحيرة . وبعد ثوان قال :

— آه ياسيدى ؟ أأنت صاحب هذا السفين ؟

— نعم ياسيدى !

— أتسمح لنا بزيارته ؟

— إذا تكرمتم ياسيدى !

ونطق بعد ذلك بجملة غريبة الألفاظ لم أدرك من ألفاظها إلا كلمة « كريم » فقد كانت تتردد فى كلامه كثيراً

وطفق يبحث عن مكان سهل الصعود ، فدللته وأعطيته يدى ليستعصم بها من الزلل . وبعد أن ارتقى السطح أعنت الفتيات الثلاث على الصعود معنا إلى سطح السفينة الأعلى . لقد كن جميلات ساحرات ، وكبراهن خاصة ... ... ! ملاك فى الثامنة عشرة من عمرها ... يانعة كالزهرة ، فارعة كالبانة ، عاطرة كالنرجسة ... ! دقيقة ... رقيقة ! لينة المعاطف مرهفة القوام ... ! حقا ! إن هؤلاء

الانجليزيات الحسان يشبهن زهرات بديعة تعهدها المحيط بلطفه ، وحباها ببطفه ، وشملها بعنايته ؛ عشاها على جماله ونسقه ... ولو صح ذلك لكانت كبراهن إحدى الزهرات اللاتى نشأن بشاطئ أصفر لا تزال تحفظ له العهد ، وتخلص له الود ، فاتخذت من رمله شعرها الغزير البديع !

وكانت تتحدث بلهجة أسلم من لهجة أبيها ، فكانت ترجماناً بيني وبينه . وكان على أن أقص عليهم الكارثة وخوافيها ؛ فبدأت أنسج الحوادث ، وأنمم التفاصيل ؛ وكنت أقرر الحوادث فى مهارة وحذق ، وأؤكد فى التقرير ما وسعنى التأكيد ؛ فكأنما كنت حاضراً حينذاك ، فأنا أحد الذين كرثهم البحر بغدره ... ! وما دخلوا جوف السفين الذى ينيره بصيص من نور ينفذ إليه من الكوى والفتوق حتى علت صيحات الفرح والإعجاب ... وجذب الوالد وبناته دفاتر الرسم لا شك أنهم كانوا يحملونها فى ثيابهم الواسعة . ثم أخذ كل يخط رسماً « كريكاتورياً » لذلك الشكل الناشز العجيب ... حقاً ! لقد كان شكلاً لا يقدر على وضعه إلا يد اليم الماهرة ، ولا يقدر على رسمه إلا يد فنان موهوب ... وساد الجو سكون حبيب . ولك أن تتخيلهم وقد جلس أربعتهم كل قريب من الآخر ... أبوهن فى طرف وهن فى الطرف الآخر ... قد جلسوا جميعاً على روط خفيض ثم وضعوا دفاترهم على أفخاذهم وانحنوا عليها يرسمون منظر الفلك الحزين . وبدأ كل يخط خطوطاً لا بد أنها تحدد منظر المكان مرسوماً من الداخل المعتم

وبينما كبراهن ترسم كانت لا تكف عن الثرثرة والحديث معى ، أما أنا فقد كنت أجلس جوارها أقارن بين ما ترسم وهيكل « مارى — يوسف » المنكود ...

وعلمت أنهم يقضون الشتاء فى « بيار بتز » وأنهم قد وصلوا جزيرة « رى » أخيراً كي يشهدوا منظر « مارى — يوسف » وهو غارق فى اليم محترقاً شاطئه ورمله . ولم أجد بوجوههم ذاك التجهم الذى يشف عن غطرسة طالما غرستها انجلترا فى نفوس أبنائها الكرام . لقد كانوا نبلاء بسطاء : هؤلاء الناس ! لا أثر لكبر ولا غطرسة ! كانوا من هؤلاء السواح الدائبين الذين تقذف بهم انجلترا إلى العالم يخبرونه ويعلمون أسراره . فالأب سمهرى القوام ، بادى الهزال ، عظيم الوجه أحمره ، يحده من الجانبين عذاران ناصعا الشيب . وكذلك بناته فارعات القوام باديات الهزال كذلك — إلا الكبرى — رقيقات لطيفات ... وكبراهن خاصة !

لقد كان لكبراهن أسلوب فى الخطاب وفى الحديث ... فى الفهم وعدم الفهم ... فى تصويب حدقتيها نحوى إن أرادت سؤالى ... حدقتيها الصافيتين كماء المحيط ! فى الإمساك عن الرسم كى تقدم ما رسمت ، وتعدل ما خططت من خطوط ... فى الإقبال على العمل بنشاط وحبور ... وفى إجاباتها « بنعم » أو « لا » ... أسلوب جعلني أذهل وأدهش ... أذهل عن وقتى ونفسى معاً ... جعلنى أعلق السماع لها ساعات لا عدّ لها ... وأغرم بترقب ما تسقطه شفتاها اللعساوان من رائع اللفظ وعذب الحديث !

وعلى حين غرة قالت لى هامسة :

— إنى أسمع صوتاً تحت هذا السفين

كأنى أسمع الصوت أنا الآخر ! فقفزت إلى سطح الزورق الأعلى لألقى هؤلاء الناس !

وأصخت السمع فسمعت إذ ذاك همهمة ، سمعتها منذ أمد قصير . كنا نسمع همهمة جافة مستمرة فى حفيف غير حالى النبرات ... تستمر فى صوت أجش خفيض ... ما هـذا ؟ رفعت رأسى وفزعت إلى الكوة فصرخت صرخة مدوية : لقد استردنا اليم فخاطنا بمائه وموجه !

وقفزنا جميعاً إلى ظهر المركب ، ولكن أزمة الفرصة قد أفلتت جميعاً من بين أيدينا . فقد عرفنا الأمر أخيراً ولات ساعة معرفة ! حاصرتنا المياه من كل جانب ، كل فوج يتبع الآخر ، والموج يكسح بعضه بعضا ... كلا ! لم تكن تعدو ! بل كانت تحبو مدللة وادعة ترمقنا بسناها الذهبى ، ثم تودعنا وهى تترنم بخريرها الساخر في الطريق إلى البر القريب ! ماذا حدث ؟ لا شئ أكثر من بضعة أمتار من المـاء قد سبقتنا إلى الساحل ... ولكن لم يكن المرء بمستطيع أن يميز حد الماء الزاحف على رمل الساحل القريب

« وقد تأهب الانجليز للمغامرة بأنفسهم وسط المـاء المترحل إلى البر ، ولكنى منعتهم لأنه بات أمامنا مستنقع عميق يأتيه الماء متحدراً من منعرج مرتفع ، فإذا ما قفزنا فيه جرفنا المـاء وأغرقتنا دوامات المنحدر

« وانصب الغم فى قلوبنا صباً ، إذ كانت لحظة عصيبة لهـا ما بعدها من اللحظات السود ... ولم نكن ندرى ماذا نفعل ... على أن صغراهن ضحكت قائلة :

— بتنا نحن المنكوبين المغرقين !

« وأردت أن أضحك ولكن الهلع الجنى وأخرسنى ... إذ تمثل أمامى ما نحن فيـه وما نحن مقدمون عليه من خطر عظيم . فوددت لو صرخت : « النجدة ! » ولكن لمن أوجه الصيحة ؟

« واحتضنت الفتاتان الصغيرتان أباهما .. وكان هذا يحدق فى البحر الساخر بعين غاضبة محنقة

« أسدف الليل قبل أن يسترد البحر مياه المد فكان ليلاً رطباً ثقيلاً بارداً ...

وأخيراً قلت :

— لا شئ لدينا سوى أن نمكث الليل بهذا السفين .

— نعم بالطبع :

« أليثنا كذلك ربع ساعة ؟ نصف ساعة ؟ لست أدرى كم من الوقت لبثنا ، ولكن الذى أدريه أنا كنا جميعاً متكاتفين ، نحدق فى المياه الهادرة من حولنا ... تأتي مجحة من بعيـد ، فتنحدر على المنعرج ساخرة ، وتمس الزورق فنحس بأنها تغلى . كلا ! لم تكن تغلى ، بل كانت تميس وتدلف — ساخرة — إلى الشاطئ المغلوب !

« واستشعرت إحدى البنات البرد يقرسها ، ففكرنا حينئذ فى الرجوع إلى جوف الزورق من جديد لنتقى هبات النسيم البارد ، وانحنيت على السلم فألفيت المـاء يملأ قاع السفين ، فاقترحت عليهم أن نمكث فى مؤخرته المرتفعة ربما نجد لنا مخرجاً من مأزقنا هذا ، أو نكون فى مكان يعصمنا من الماء إلى حين

« لفنا الظلام بمسوحه السوداء الطاخية ، وتقارب كل منا من صاحبه كى يشيع الدفء فينا ... ولكن ... كان يحيطنا الماء والظلمة ! أحس بجسد يرتعد بجانبي فيرتطم بكتفى ، لقد كانت صغرى البنات ترتعد من خوف وزمهرير ، وأسنانها تصطك من

حين لآخر بصوت جاف خفيض ... لا نتحدث إلا غراراً بعد أن سجدنا على أفخاذنا — كما يفعل العابد الخابت — نحدق فى المياه الداكنة بحزن وجزع . ومع ذلك فقد بدأت أستشعر لذة غريبة تغمر قلبي الواجف برغم الليل الحالك والبلاء العظيم! لذة قوية أجدها فى البرد القارس والليل الحالك والكرب المميت ... فى تلك الساعات المضطربة السدفاء التى أمضيتها — والتى سوف أمضيها فوق ذلك الرمث الهائم فى جوف الليل البهيم — قريباً .. قريباً من .. . تلك الفتاة الساحرة !

وتساءلت طويلاً فيما بيني وبين نفسي : لم غلبني على أمري هذا الشعور بالفرح والسعادة ... لم ؟

« لم ؟ هل أدري؟ .. ألأنها بقربي؟ .. من..؟ مي؟ .. ومن تكون « مى » ؟ فتاة انجليزية مجهولة ؟ إني لا أحبها ... بل لا أكاد أعرفها ... ثم ... ثم بعد ذلك أستشعر حناناً هائلا يعصف بقلبي الـ ... مغلوب ! وددت لو استطعت إنقاذها ... بل وددت أن أضحى بنفسي فى سبيلها ! .. هذا الشيء الأجنبي!

الليل يثقل ببرده وحلكته ... أمواج من ماء وأخرى من أسداف الظلام ... ليل سادر وصمت مقيم ...

« وعلى حين غرة سمعت نشيجاً ... وا أسفا ! كانت صغرى البنات تبكى وحاول أبوها أن يسليها ويداعبها فاشتركت معه أختاها . فتكلم الجميع بلغتهم التى لا أعرف منها لفظاً ... لكنى حدست أنهم يهدهدونها ويداعبونها ، ولكنها تأبى فتنطوى على نفسها فى خوف وفزع

« وسألت جارتى :

— ألا تحسين برداً يا آنسة ؟

— آه حقاً إنه يؤذيني

وأردت أن أهبها معطفى ولكنها أبت . غير أنى خلعته وألقيته على كتفيها بالرغم منها

وبدأ الهواء يحرك الموج - فى هنيهة ورفق - فيسمع له خرير خفيض ، ولكنه تعاظم واشتد فانقلب زئيراً صاخباً .. واندفعت المياه إلى فلكنا لاهثة غضبى ... ووثبت إذ ذاك فجأة ، فقد لطمني الهواء البارد فى وجهى ، وبدأت العاصفة !

« وأحس السيد بما أحسست به ، فما زاد على قوله :

— إن هذا لمضر بنا ... إنه ...

« هو مضر بنا جميعاً دون ريب ... إنه الموت الأكيد الأسود ! ... فقد بدأ الموج — حتى الضعيف منه — يهاجم السفين . ذلك الرمث المفكك يربطنا ظهره بالحياة . فإذا ما صفعته على جنبيه موجة هوجاء تفككت أوصاله ، وانفصمت عراه الواهية ..

« كانت ظلمة الليل تزيد وتعظم كلما هبت علينا ريح سحماء عاتية . وكنت إن أنعمت النظر فى الماء — فى تلك الحلكة المتكاثفة — رأيت حبالا من الزبد يشد بعضها بعضاً ، ثم تتلكأ فى أعطاف « مارى — يوسف » المنكود ، فتحركه ، وحينئذ تهبط قلوبنا فى البطون ، وتبلغ أرواحنا الحلقوم خوفاً وفزعا .

وبدأت كبرى الفتيات تضطرب وترتعد . فالتصقت بى تلتمس لدى دفئاً ... وتملكت من زمامي رغبة جامحة أن أحتضنها بين يدى ، وأغيبها فى صدرى !

هناك البحر ... البحر من خلفنا وأمامنا ، والبحر عن يميننا ويسارنا ... وهناك على البر تقوم

المنائر ... ومنها تتراقص الأنوار البيضاء والحمراء والزرقاء كل له ميزته ودلالته ... تتراقص أمامنا وخلفنا . وتدور نافذتا كل منار من آن لآن ... فكأنها عيون باحثة ... عيون مردة تسائل عنا الليل البهيم ! وقد حسبت أن إحداها عثرت علينا فهى تتلكأ فى سيرها ، فكأنما هى تتعرف علينا خفية وتتوسم الوجوه ! ولكنها ضايقتنى هذه المنارة وأغضبتنى ! فقد تراءى لى — بعد لحظة — أنها تتلهب كعين العاذل الثقيل ! فهى تبطئ فى السير كظيمة غضبى ! ثم لاتغمض أجفانها عنا إلا على قذى وشجن ؟

وكان السيد الانجليزى يشعل عوداً من الثقاب ليرى الساعة من حين إلى حين . وعلى حين بغتة قال لى — من فوق رؤوس فتياته — فى لهجة بائسة :

— سيدى ! أتمنى لك عاماً سعيداً ؟

لقد كنا فى منتصف الليل فتمنيت له ماتمنى ، ومددت له يدى فشد عليها بحرارة ، ثم قال لبناته جملة طويلة لم أفقه منها شيئاً ، فبدأت الفتيات يتغنين — وهو معهم — وارتفع الصوت حاراً قوياً ، ينشد : « الله يحفظ الملكة » فتهادى النشيد فى الليل البهيم وحوّم فى الظلام الأبكم ضارعاً ملتاعاً ...

وأحسست أولاً برغبة قوية فى الضحك ، ولكنى أمسكت بفضل شعور ناشز عجيب ...

لقد كان شيئاً فخماً منكوداً ، لازمه سوء الطالع فألهبه وأرهقه : ذلك الغناء ..! غناء الموتى المغرقين ... غناء من ضرب عليهم الموت فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون ... ذلك الغناء كان شيئاً يشبه الدعاء والابتهال !

وبعد أن فرغ الغناء طلبت إلى جارتى أن تتغنى بما شاءت وماحلا لها من أهازيج الفرح والتطريب علنا ننسى مانعاني من بلاء وعنت . وارتضت جارتى ما اقترحت عليها ، فتهادى صوتها فى الليل حنوناً قوياً . ينفث السحر ، ويبعث الشعر حياً . تهادى ... فترقرق ... ثم سال حزناً وأسى . لقد كانت تغنى لحناً حزيناً دون ريب ... إذ كانت تستأنى بنبراته ومقاطعه ، فيخرج من بين شفتيها حزيناً موجعاً ... ثم ... ثم يصدر عن السفين ... يهيم فى الظلام ... ليتكسر على رءوس الصخر وشعافه ... ثم يغيّب فى ضحكات الموت الساخرة ! ولست أدرى هل كنت يقظان حينما حسبت أنى أسمع صوت كروان جريح ينوح ويبكى بينا يرجّعن فوق الموج فى حزن ولغب ! ؟ ...

وسخر منا البحر فعاد بعده ، ثم طفق يرتطم بسفينتنا « مارى — يوسف » ولكن ... لم أكن أنا لأفكر فى شىء من هذا ... لا أفكر إلا فى هذا الصوت الحنون !

وما لبثنا إلا قليلاً حتى انقلبت بنا السفينة بغتة فقد اعتدلت كأنها تستمد لنزال ، فانسدحنا — برغمنا — على سطح الزورق الأعلى . وانطرحتْ علىّ كبراهن فأمسكت بها فى جنون ونشوة ، فضممتها إلى دون وعى ولا تفكير ... لقد كنت أحسب أنى أنشق آخر أنفاسى ، فوددت أن يكون حبها آخر عهدى بهذه الدنيا ؛ فشرعت أقبل ذلك الشعر الجثل الجميل الآن ! لم يعد السفين يتحرك ... ولم نعد نحن نختلج

وصاح الأب فزعاً « كيتى ! » فأجابته من بين ذراعى : « نعم ! » ثم تطلقت من بين أحضانى ... يا لها من لحظات ! كم وددت حينذاك أن ينحطم « مارى — يوسف » فيبلعنا البحر سويا

وقال السيد :

— إنها خطرة باغتة ، ولم تحدث بنا ضر ؛ فما يزال بسطح الزورق أطفالى الثلاث

يالله ! لقد كان يحسب — حين لم يبصر فتاته الكبرى أنه قد ثكلها

وثاب إلىّ الرشاد رويداً رويداً . وهناك عن كثب شاهدت نوراً يترجح على الماء الغاضب ... وصحت فردت الصيحة . لقد كان زورق الفندق ، أتى ليبحث عنا بعد أن أدرك ما قدمنا من نهور

ونجونا ، وكم أسفت لذلك ! حملنا الرجال عن الزمث إلى زورقهم المتين ، فلا أمل فى الكرب ثانية ... ! وأخيراً عدنا إلى مدينة « سان مارتان » وفرك الانجليز أيديهم :

— العشاء ، العشاء !

« وقد طعمنا ... ولكني لم أكن سعيداً ... لأنى حزنت على « مارى — يوسف »

وكان لابد أن نفترق فى الغد . وبرحوا الجزيرة إلى « بياريتز » بعد كثير من الوعود والقبل . ولم أكن أستطيع اللحاق بهم ، فهناك قيود العمل اللعين

كم كنت مجنوناً حينذاك ! كان علىّ أن أطلب يد الفتاة ، فإنى واثق أنى لو مكثت معها ثمانية أيام لكنت فى التاسع زوجها !

كم يكون المرء — أحياناً — ضعيفاً غامضاً !

ومضى عامان لا أسمع فيهما من أخبارها شيئاً . وفى رأس الثالث تسلمت من نيويورك خطاباً . فقد تزوجت هناك ، وقد قالت لى ذلك . ومنذ ذلك الوقت ونحن نتراسل فى اليوم الأول من يناير كل عام ، وهى تحدثنى عن معيشتها ... أطفالها ... عن أخواتها ، أما عن زوجها فلا : ... لماذا ؟ آه ! لماذا ... ؟ وأنا الآخر لا أحدثها عن شىء إلا عن « مارى — يوسف »

غرامى الأول والأخير ... المرأة التى أحببتها وأحبها ... كلا ! بل التى سوف أحبها ... آه ! لقد كرثنا الدهر كما كرث اليم «مارى — يوسف» وحطمنا الحب كما حطمه البحر ... وضل كل منا فى الحياة طريقه ، كما ضل « مارى — يوسف » فى الظلام طريقه ... إن الحوادث تحملك بعيداً ... بعيداً ... ثم بعد ذلك ... بعد ذلك ... كل شىء يمر وينقضى ... فهى الآن عجوز دون شك ... لا أكاد أعرفها إذا ما لقيتها ... فتاة الماضي ... فتاة « ماري — يوسف » الشريد ... أى مخلوق ... مقدس ! لقد حدثتنى أنه قد ابيض شعرها شيباً .. وهذا شعرى يشتعل فيه المشيب ... يا إلهى ! إن هذا يفزعنى ... آه ! تلك الغدائر ... الغدائر الصفراء .. كلا ! إن وجهها قد غاض وتغضن ... إيه أيتها الذاكرة ! أى ذكرى أليمة تبعثين ...

سيد محمد العزاوى

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً